من وحي الصحراء

مع ينبوع العبقريات

للأستاذ صلاح الدين المنجد

تعالى أغرودتى أسمعك نشيد فتى الصحراء ، الذى عشقته الرمالُ ، وقبّلته الشمس ، وحضنه الغار ، وحنّتْ عليه الجبال ... !

تعالى ... فإنّ هـذا الفتى الجميل ، ذا العينين السـوداوين ، والبشرة الزهراء ، قد فتنَ الدنيا فهى تناغى اسمه ... وخلبَ القلوب فهى ترِفُ لذكره ، وأعشى بنوره العيون فهى تَغضّ لمرآه ! ...

لقد كان هذا البطل يا فتاتى بِشراً وسِحراً ورحمة ... وكان ينبوعَ نور ومصدرَ هُدى ... إن عالَمهُ مملوء بالترانيم والتسابيح فأنصتى ... أنصتى إليه ... !

ليتك رأيتِه يا أغرودتى وهو يرعى الغنمَ فوق البطاح ... يرف حوله الطُهرُ والصفاء. وليتك سمعت نجوى الرمال، إذ رأتْه ، إلى الرمال ... وليتك رأيته تحف به تلك العصبةُ من قريش فتنصرَه وترعاه ... وليتك بصرت بالنور يتألّقُ فى حواشى الصحراء ، ويَتوهّجُ فى قمم الجبال ... إذن ، لرأيتِه سيداً بطلاً ! ... ولسمعتِ حديثاً عجباً ! ... ولبصرتِ بما يُذهل ويعجب ! ...

لقد رقّ الليلُ ... ولَطُف الوجودَ ... كان ليلَ الجاهلية والأوثان ... وإذا بالقلبِ الزاهى يتمايل فى مكة العروس ... وإذا بفتى الصحراء يخطو فى الزمن ... يدعو الناسَ إلى الهدى ... إلى الله ... !

الأولى فى الجاهلية ، واستبدلوا الأسر فى المشركين طمعاً فى الفداء بالإثخان فيهم ، والضرب فوق أعناقهم

فلما وضع القوم أيديهم يأسرون ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى العريش ، وسعد بن مُعاذ قائم على باب العريش متوشّحاً فى نفر من الأنصار ، يحرسون رسول الله صلى الله عليه وسلم يخافون عليه كرةَ العدو — رأى رسول الله فى وجه سعد بن معاذ الكراهيةَ لما يصنع الناس ، فقال له : والله لكأنك يا سعد تكره ما يصنع القوم ، قال : أجل والله يا رسول الله ، كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك ، فكان الإثخان فى القتل أحب إلىّ من استبقاء الرجال

فهذا هو الإثخان الذى نزل فيه قوله تعالى فى الآيتين السابقتين (ما كان لنبى أن يكون لَهُ أسرَى حتى يُثخنَ فى الأرض) وهو إثخان تبيحه الشرائع العادلة ، ويقتضيه الحزم والتدبير ، وقد أمر الله به فى أثناء القتال ، ولم يأمر به فى الأسرى بعد الانتهاء منه ، كما هو المشهور فى سبب نزول تينك الآيتين

وأما عرض الدنيا الذى قصده الله تعالى بقوله : (تريدون عرض الدنيا) فليس هو الفداء الذى أباحه الله لنا بعد القتال ، وإنما هو ما حصل منهم أثناء القتال من إيثار الأسر على القتل طمعاً فى الفداء ، والقتال فى الإسلام لا يصح أن يكون لغرض من أغراض الدنيا ، لأن ذلك هو قتالهم فى الجاهلية للسلب والنهب والإسلام أشرف من أن يباح فيه القتال لذلك الغرض

وهذا المعنى الذى نقوله فى تفسير الآيتين هو الظاهر منهما ، لأن العتاب فيهما لم يرد إلا على نفس الأسر ، أما تفسيرهما المشهور فالعتاب فيه على الفداء ، وهو إنما يصح تفسيراً لمثل : كان لنبى أن يُمنّ على أسرى . وقد قال ابن السبكى فى تفسيرها : إن المعنى ما كان لنبى غيرك أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض . فجعل هذا من خصائصه صلى الله عليه وسلم ، وهو تفسير يخالف التفسير المشهور أيضاً ، ولكنه بعيد عن نظم الآية ، والذى يتفق مع نظمها هو تفسيرنا .

عبد المتعال الصعيدى

لقد رنّت حولَه طيوف الأجيال ... فغازلَتْه ... وإذا به يجمعُ فى نفسه العظيمة تلك العبقريات التى ظهرت منذ بعيد ... لا ، لا ... بل جمع عبقريات السنين الخوالى والسنين القادمات ...

لقد مادت الصحراء وهى سكرى إذ رأته ... وضجت الرمال وهى نشوى إذ غازلَته ... فراحت تقفزُ متوثبةً نحو البيت العتيق تهزج وتقول :

هــذا فتانا ... هــذا فتانا
يهدى الدنيا ويحيى الوجود ...
هو لنا يا رجالُ فلن تؤذوه ...
هو ابنُ الصحراء ... فسيقهر العالم
إسى يا رمالُ إليه ... وقبلى قدَميْه ...
ثم انفـذى إلى عيون مناوئيه ...
ألا تسمعينَه يا أختاه ... ألا تسمعينَه !
إن نشيدَه رخيمٌ ساحر ! ...
إن قرآنه معجز باهر ! ...
إن لحنَه عبقرىٌ بارع ! ...
أنظرى ... أنظرى يا أختاه ...
إن الجان ينصتون إليــه ...
هاهم أولاء الشياطين ينزعون منه
لقد تمايلت بنات الجبل[1] العابثات لهذا القرآن
هاهنّ أولاء يرددنه بزهو فرحات
يقفزن ليودّعنَه الكهوف ، ويسمعنه الأودية ويلقـنه بنات السهول
إسمعى يا أختاه صــداه ... فلقد عمّ وانتشر ...
فالله يحفظه يا أختى ويرعاه ... !
أيتها النسيمات ... تعالى فاحملينا إليه ... علنا نقبل أقدامه ... ونسجو بين يديه ...

* * *

ومضى محمدٌ يا فتاتى ... وجاء الهدى ... وتمت المعجزة !

يا لله ! أفى يوم وليلة ... تهدَم الأوثان ... وتحطم الآلهة ! أفى يوم وليلة تُهدى قلوبٌ ... وترجع إلى الله نفوس ... ! يا للمعجزة ! يا لعظمتك يا محمد ... يا لسموّك أيها القرآن ! لقد ردّدوه يا فتاتى فخروا سُجّداً ... وتلوه فشفيت به صدورٌ وبرئت أرواح ... وكانت معجزة فى الصحراء ...

أنظرى ... أغرودتى ... أنظرى

إن هذا النور الذى يرقص على سفوح يثرب ، ويسيل من قمم أحد ... ما يزال يشع ولا يخبو ... ! لقد كانت تلك الرمال الشقر ينبوعه الثرّ ... ولنْ ينضبَ وعيشك ما دام فى تلك الصحراء رمال ... وفى مكة كعبة ... وفى الدنيا إلٰه ... وعند الناس قرآن !

يا لروعة هذه الشعلة المتوثبة ويا لجلالها ... ! لقد هبّت عليها الرياح الهوجُ ... ولعبتْ بها الأيادى السود ... وأقسموا ليطفئونها بأفواههم ودمائهم ... ولكن الشعلة ما زالت تتوثبُ ضاحكةً جذلى ، رهيبة مخيفة ، إنهـا تصعدُ قويّةً زاخرة ، لا تعبأ بالشركِ ولا تحفـل بالدسيسة ... إنها من نور الله ... إن فيها قوة زلزلت الأرضَ ... قوة ما وقفَ أمامها كسرى ولا أعوانه ... وقيصر ولا خُلاّنه ... لقد تداعت لرؤيتها القصور الشمُّ على شواطى دجلة وجنبات فارس ، وعربدت لها الروج الخضرُ فى سفوح الأندلس وشطئان المغرب ... إنها ما انطفأت أبداً ... ولكنها ما تزال تعلو وتسمو

لقد كان هذا النور يا أغرودتى مباركا لينا ، كان يلمس القلوب الوجيعة فيبرئها ، وينفذ إلى الصدور المظلمة فيضيئها ، ويدغدغ النفوس المفجوعة فيواسيها ... فما للقلوب اليوم تصدف عنه ، وما للنفوس لا تحنُّ إليه ... ؟

يا حسرتا عليها يا فتاة ... إنها أشعة الجمال ... إنها ومضات الإيمان ... إنها من نور الله ... !

* * *

وما الحجاز يا أغرودتى لولا محمد وأشعة محمد ! أكان الناس يذكرون تلك البطاح لولاه ... ؟ وماذا كانوا يقولون بربك ... ؟ أيقولون بلاد الرعاة أم مرابع الخيام أم وأدة البنات ... ؟ لا وفتاك

(١) قالت العرب بنات الجبل وعنوا بها الأصداء

يا أغرودتى ... لولا محمد لما كان هناك حجاز ، ولما رنّت إليه قلوب وعشقته نفوس . ولما كان للعرب أمر فى الدنيا ولا اسم مشرق فى التاريخ ... ! « ولكانت تلك البقاع سماء من غير أضواء ، وأصواتاً من غير أصداء ، ومساكن من غير أحياء »[1]

فاضحكى لهذا النور، وغنّى من هذا الينبوع. فلقد تدفق من حراء ، ثم سقى الصحراء ، ثم أقبل يتبادى بين زهور دمشق وعطور الغوطة ، ثم فاض فرقص له النخيل وصفق له النيل حتى أدرك البرانس ... وبلغ هملايا ...

اللهم إنه دينك الذى أحببت ، أتممته ورضيته لنا ، فبارك لنا فيه ، واهدنا إليه . إنك أنت الهادى الحكيم ...

* * *

وأنت يا قلب !

حدثنى ... من يأخذنى إلى تلك البقاع ... أستنشق عطر الحزامى، وأطأ الرمال التى قبلت أقدام الرسول

حدثنى ... كيف أرى الغار العظيم ، وأرى الجبل الأشم ، وأهبط الوادى الهادئ ... وأرى مكة العروس ممتدة فوق الرمال ... !

* * *

حدثنى ... متى تقف أمام قبر البطل المشرّع ، والفارس المصلح ... أمام خالق أمة ، وواضع شريعة ... فتخشع فى روضته وتردد ألحانه وقصيدته وتنادى :

السلام عليك يا سيدى يا رسول الله

السلام عليك يا أيها النبى الرحيم

السلام عليك يا أيها الرسول العظيم

السلام عليك يا من كنت رحمة للناس وهدى للعالمين ...

متى تقف يا قلب ... متى ... متى ... !

(دمشق) صدوع الدين المجدد

(١) لامارتين فى (رفائيل)

صـــدر حديثا كتاب :

يقع فى زهاء خمسمائة صفحة من القطع المتوسط وثمنه ٢٥ قرشا ويطلب من إدارة الرسالة ومن جميع المكاتب الشهيرة

وحى الرسالة

فصول فى الأدب والفن والسياسة والاجتماع

بقلم

احمد حسن الزيات